أيها العم « هــو » لم تمت !

المناضل العنيد بضعة منه. والقائد الفذ بضعة منه. والطفل الحالم. والنسر الغاضب. وشغيل المطعم البسيط والشاعر الاصيل والمفكر العظيم.. كلهم بضعة منه.

انه الرجل الذي اصبح اسطورة وهو على قيد الحياة، وامسى اسطورة ورمزا في ردهة الموت ..

سلخ من الزمن تسعة وسبعين عاما، بعضها للطفولة وما تبقى فللحرية والورد والاطفال..

كان فتى يافعا في باريس. عاصمة مستعمري بلاده حين فتح قلبه وذهنه للماركسية فاعتنقها، ومد يده للحرية وللطبقة العاملة فاحتضنته.

ويوم استوعب مأساة وطنه وشعبه المحنيين تحت حذاء المستعمر الاجنبي، نذر نفسه للكفاح، ونزل الى المعركة بكل جوارحه، فكان الذراع الاقوى والروح الاعلى والفكر الابعد اشعاعا في حركة "فييت مين" التي أسسها مع اخوة له من رواد الحرية الشجعان.

لكن فيتنام، التي كانت تسمى أنذاك (الهند الصينية)، لم تكد

تمسح عن رئتها آثار حذاء الفاتح الياباني الاخير، حتى ابتليت باسم من العدو القديم ينز سما ودما وليلا.. عاد اليها اسم (الهند الصينية-الفرنسية) .. هكذا في سجلات وخرائط المحتلين الجدد .. اما في قلوب الفيتناميين، وفي مقدمتهم "هو تشي مين" ورفاقه فقد ظل اسمها طاهرا نقيا، تنسجه اكف الثوار في غابات البامبوك ومزارع الارز، على اعلام المستقبل الحمراء.. واستمر الكفاح الدامي الذي لا يعرف الوهن سبيلا اليه. واستمرت الاسطورة .. شجرة لا حدود لجذورها ولا منتهى لاغصانها .. تنمو وتنمو لتثمر وتثمر .. وفي بركة الدم الممزوج بالازهار وسنابل الارز والعرق المقدس، في ديان بيان فو الفاصلة الخالدة خلود الحرية، غرق اخر احلام الاحتكاريين الامبرياليين القادمين من بلاد تسمى فرنسا .. واعلنت جمهورية فيتنام الديموقراطية، وانتخب "هو تشي مين" اول رئيس لها ..

لكن الاستعمار لا يمكن ان يتخلى عن طبيعته، وماذا يهذب دهاقنة الرأسمال في مستنقع الرأسمالية الامريكية، سوى بنادق الثوار الحارة بعد، في ادغال الفيتنام البطلة؟

واذا كان البرابرة الجدد القادمون الى وطن الدم الغالي والتراب المسمد بالشهداء، يحلمون بان يرثوا اسلاب اسلافهم، فعليهم ان يدركوا انهم سيرثون ايضا هزيمة هؤلاء الاسلاف الخائبين .. فالام الفيتنامية ما زالت تنجب والبيارق الحمراء ما زالت تفرد ظلها .. "وهو تشي مين" لا يمكن ان يموت فكرا وروحا ولو اسلم الى البلى جسده المنهك.

لم يكن "هو تشي مين" وحيدا. فقد كان معه شعب الفيتنام باسره .. ولم تكن الفيتنام وحيدة، فقد كانت وما زالت معها قلوب الملايين وضمائر الملايين وايدي الملايين من شعوب الارض قاطبة!

المسيرة تتعاظم وتتسع .. والطريق يشع وينفرج .. واذا مات منا سيد قام سيد .. والذي يحترق، يهتف اجعلوني ضوء!

طويلة جادتك ايها الرفيق الراحل.. طويلة بالنور وطويلة بالظلام. لكننا سنذكرها جيدا. سنذكر كل الاسحار التي شهدت إسراءك وسنذكر كل الاصائل التي شهدت معراجك. سنذكر كل شجرة ظللتك وكل نجمة آنستك، وانت تقطع عشرات الكيلومترات سيرا على قدميك المتعبتين، متنقلا من جب افاع الى قلعة بطولات الى واحة امان والى خندق تضحيات. سنذكر الثلاثين سجنا التي اسندت ظهرك الجبار الى جدرانها الرطبة رافعا وجهك من كواها الكئيبة الى حيث الاطفال الذين تحبهم والرجال الذين يقاتلون في جبهة هذا الحب. سنذكر جادتك بادق تفاصيلها والمعالم المضيئة على شاطئيها.

يوم سجنك زبانية شانغ كاي شيك فرضوا عليك ان تكتب شعرك بالصينية .. ما همك ايها المعلم العظيم، ما دامت اشعارك اليوم تعرفها جميع لغات العالم؟

يوم القوا القبض عليك تساءلوا في غطرسة: من انت ايها الافاق؟ .. ما همك ايها الرفيق الطيب، ما دام الملايين من ابناء الارض يدعونك اليوم: العم هو؟

لقد كنت بسيطا للغاية، وعاقلا للغاية، وقويا للغاية، ولذا تستحق ان تكون الرمز والفكرة ..

انسانيتك المذهلة في صفائها لم تتخل عنك حتى في احرج الظروف، فمثلك القمين بان يقول: حين يغادر الاميركيون ارض الفيتنام فسنودعهم في محطات القطار بباقات الورد!

هكذا كنت، وهكذا انت! فمن يمنحنا القدرة على ان نكون تلاميذك النجباء؟

اغمضت عينيك من رهق أيها العم هو .. لكن ضوءهما ما زال نجما مجوسيا يبارك وجوه الكرة الارضية كلها..

كم كنت اتمنى ان اغمر وجهي في ثنايا ثوبك الخاكي، بيرق البساطة والكدح والاستعداد الابدي .. وكم كنت اتمنى ان تسجي يداي باقة من ازهار الجليل الدامية على حذائك المطاطي الذي حفظ دروبك كلها عن ظهر قلب، لكن جسدي موضوع تحت الاقامة الاجبارية في وطني هذا الايوب الجديد ..

ومن قال ان النهاية تقف هنا .. ما دامت اكاليل الغار والزيتون والسنابل تطير الى جنبات ضريحك من وطن الملايين المستيقظة التي تبذر الثورة في جزيرة العرب وتحصدها في ليبيا وتبذرها في السودان لتحصدها في اسرائيل وفي الارجنتين وفي كل مكان!

من قال ان النهاية تقف هنا .. والجبل الذي طلعت على سفحه كزنبقة شجاعة، مازال راسخا راسخا .. يعلو ويعلو.. يضخم ويضخم .. وتغطيه اغاني العصافير التي سمعتها ذات يوم من كوة سجنك؟